الفكر الديني وتطوره في العراق إبان عصور ما قبل التاريخ

أ. م. د. حسين يوسف حازم
جامعة الموصل – كلية الآثار

الملخص

يعد الفكر الديني أحد أهم وابرز الجوانب الكبيرة والهامة في حياة الناس والشعوب والأمم وأهم العوامل الأساسية والمؤثرة في سير حياتها وتاريخها وتطور حضارتها . فالفكر الديني لجانب المعتقدات الدينية يحدد سلوك الأنسان والمجتمع بأسرة ويطبع عاداته وتقاليده بطابع خاص وينظم أعرافه وتقاليده و سلوكه وتصرفاته . لقد شكل الفكر الديني في العراق خلال فترة عصور ما قبل التاريخ مرتكزاَ أساسياَ وعنصراَ حيوياَ وحيزا "كبيراَ لما كان له من تأثير مباشر على حياة الناس والمجتمع سيما بعد حدوث الثورة الزراعية أو ما اصطلح على تسميته (بالانقلاب الاقتصادي) خلال العصر الحجري الحديث بشكل خاص اذ شكل الفكر الديني ونشوء أولى مظاهر التقديس والمعتقدات الدينية أحد أبرز جوانبها ومظاهرها وأحد أهم المرتكزات الاساسية المرتبطة بذلك الانقلاب الاقتصادي الذي قاد الى تطور المجتمع جذرياَ وبنائه حضارياَ وثقافياَ واجتماعياَ. وقد شكل بناء الفكر الديني في العراق خلال فترة عصور ما قبل التاريخ الذي ارتكزت أسسه ومقوماته ولبناته الاساسية وبشكل خاص خلال مرحلة العصر الحجري الحديث منعطفاَ هاماَ وأساسياَ في حياة الناس والمجتمع حيث مثل أولى مبادئ العقيدة الدينية في العراق وحدد توجهاتها وتطوراتها التي ترسخت واتسعت وتطورت خلال العصور التالية حتى وصلت الى الديانة المتكاملة بقواعد وأُسس ومبادئ عامة وسمات اختصت بها فكانت أحد أبرز الجوانب الحضارية للعراق . وقد تناول البحث هذا الجانب الهام من جوانب الحضارة العراقية القديمة خلال فترة عصور ما قبل التاريخ حيث تطرقنا الى تمهيد عام تحدثنا فيه عن دور الفكر الديني وتأثيره على حياة الناس والمجتمعات وتوجهاته والانطباع العام الذي تركه فيهم . ثم تناولنا نشأة أولى المعتقدات الدينية وبدايات الفكر الديني وجوانبه و أسسه وتطوره في العراق خلال فترة عصور ما قبل التاريخ حيث استعرضنا الجذور الأولى للأفكار والتطورات العقائدية والروحية للإنسان العراقي القديم في فترة عصور ما قبل التاريخ وتطور تلك الافكار والتطورات مع حدوث الثورة الزراعية في بدايات العصر الحجري الحديث وظهور وشيوع عبادة ((الالهة الأم)) التي مثلت أولى مظاهر العبادة والتقديس الذي مثل النواة الأولى لبدايات الفكر الديني في العراق خلال فترة عصور ما قبل التاريخ والتي تطورت وترسخت واتسعت تأثيراَ وشيوعاَ في كل ارجاء العراق ومنطقة الشرق الأدنى

القديم ليتطور ذلك الفكر و تتسع جوانبه ومبادئه حتى وصلت الى العبادة الحقيقية المتكاملة الاركان والجوانب المتمثلة بظهور المعابد وتعدُ الالهة والتي تطورت وترسخت واتسعت في مظاهرها واشكالها واتساع شموليتها وانتشارها بشكل كبير في حياة الناس والمجتمع خلال الفترات المتتالية من تاريخ العراق حتى نهاية عصوره التاريخية المعروفة.

The Development of Religions Thought in Iraq During Prehistory

A. prof. Dr. Hussein Yousif Hazim

University of Mosul
College of Archaeology

Summary

Religions throught and religions beliefs are one of the most important and important aspects of the lives of people , peoples and nations and the most important and inflential factors in the course of their lives , their history and the development of their civilization . Religions through on the part of religions beliefs renews the behavior of man and society as whole and prints his customs and traditions in a special way and regulates his behavior and behavior . religions throught in Iraq during prehistory constituted a fundamental element and a vital component of the direct impact it had on the lives of people and society , especially after the agricultral revolution or what was called the " economic coup " during the neolithic inparticular . The formation of religions throught and the emergence of the first manifestations of sanctifications and relogions beliefs one of the most prominent aspects and manifectations of one the most fundamental pillars associated with the economic coup that led to the development of society and its radical change and cultural and cultural development and social .the construction of religious throught in Iraq during the prehistory , which was based on its foundations and its fundamentals and especially during the neolithic , was an important and milestone in the lives of the people and society . it represented the first principles of the religions faith in Iraq and defined its oritations and developments , until it reached the relogion with rules , principles and general principles and attributes thet were specialized in it were the most important aspects of civilization of Iraq .the research dealt with his important aspect of the ancient Iraqi civilization during prehistory , where we addressed a general introduction which we taked about the role of religions throught and this impact on people's lives and communities and orientations and general impression left in them . Then we discussed the emergence of the first religious beliefs and the beginning of religious

throught and its aspects and its development and development in Iraq during the prehistory .we reviewed the first roots of the ideas and the ideological and spirital developments of the anicient Iraqi man in prehistory and the the evolution of these ideas and developments with the adventof the agricultural revolution in the early neolitic period and the emergence and prevalence of worship (Mother God) wich represented the first manifestation which represented the first nucleus of the beginnings of religions throught Iraq during prehistory , which developed , established expanded and spread throught Iraq and the anicient near east region to develop that thought and expand its aspects and principles unit it reached the true worship integrated element and aspects of the emergence of temples and the multiplicity of God which developed and established and expanded in their manifestations and forms and the breadth of comprehensiveness and spread signifacantly successive periods of the history of Iraq unitil the end of the historical erea known .

المقدمة:

تعد المعتقدات الدينية أحد أهم الجوانب الاساسية والهامة لمحور حياة الانسان والمجتمعات وتشغل حيزاً هاماً وكبيراً فيها، اذ تمثل أحد الاركان الاساسية في الحياة الاجتماعية التي تحدد توجهات المجتمع وشكله ونظامه الذي يكون جزءً منها ومن خلالها تحدد سلوكيات افراده الذين يشكلون البناء الاساس له . ويمثل الفكر الديني جانباً حيوياً وهاماً من جوانب حضارة الامم والشعوب وركيزة رئيسة من ركائز حضارتها وبدونها لا تكتمل تلك الركائز فلا توجد حضارة انسانية بدون فكر وعقائد دينية لارتباطها بتطورات افرادها التي تشكل جانباً اساسياً من جوانب حياتهم وبنائهم الفكري والحضاري . وقد شكل الفكر الديني في العراق وبشكل رئيس خلال فترة عصور ما قبل التاريخ اهمية قصوى وكبيرة لها له من دور كبير وبارز في تحديد ملامح الحياة الأولى للإنسان والمجتمعات التي كانت قائمة فيه وما تولدت عنه من أمور أساسية شكلت جوانب هامة من جوانب الحضارة العراقية القديمة والتي عكست تأثير وعمق ذلك الفكر ومداه الكبير الذي استمر فترات زمنية طويلة ومتواصلة عدت اللبنات الاساسية التي ارتكز عليها تاريخ حضارة العراق القديم.

تكمن أهمية موضوع البحث وجوانبه في عرضه نشوء الفكر الديني وتطوره في العراق خلال فترة عصور ما قبل التاريخ وتطوره وبنائه الأُسس واللبنات الأولى لنشوء الافكار والمعتقدات الدينية وتطورها واستمرارها خلال عصوره التاريخية بمبادئ وأطر شكلت الأسس والقواعد لتلك الافكار والمعتقدات، اذ حاول البحث من خلال الأدلة الأثرية والابحاث العلمية عن كشف حقائق نشوء وتطور هذا الفكر والتي ساهمت في تدعيم وترصين الموضوع بشكله الحقيقي وتوضيحه بفرضيات مقبولة أقرب الى الواقع والحقائق الدامغة التي تصب في أهداف الموضوع وغاياته التي تشكل بمضمونها وجوهرها عرضاً لجانب هام من جوانب الحضارة العراقية القديمة التي شكل الفكر الديني فيها حيزاً هاماً ومنعطفاً كبيراً ساهم في بناء أُطر هذه الحضارة وعكس واقع المجتمع الانساني للعراق القديم.

وقد حاول البحث معالجة بعض المشكلات التي واجهته والتي تركزت بوجه عام في تعدد الآراء والفرضيات والتفسيرات وعرضها وطرحها بما يخص جانب الافكار والمعتقدات الأولى للإنسان وايجاد تفسير افتراضي لبعض الحالات والظواهر التي تصب في محاور الموضوع على حد ما والتي حاول البحث تناولها و تحليلها بدقة واستنباط أقرب الى الحقيقة والواقع وتحليل الادلة التي واكبت تلك الحقائق بشكل علمي ودقيق.

تناول البحث نشوء وتطور الفكر الديني في العراق خلال فترة عصور ما قبل التاريخ اذ استعرضنا الموضوع بدءً من فترة العصر الحجري المتوسط في الالف العاشر قبل الميلاد من خلال عدد من الجوانب التي تركزت بشكل رئيس على استعراض نشوء وتطور ذلك الفكر زمنياً بشكل تدريجي متواصل . اذ شكلت القوى الطبيعية التي يعد الدين الجوهر الحقيقي لها المحور الرئيس للموضوع وجوانبه والاساس التي أنبثقت منها الافكار والتصورات العقائدية التي تولدت منها المعتقدات الدينية وبشكل أساس خلال المرحلة التي اصطلح على تسميتها بمرحلة) جمع القوت (التي شكلت أهمية كبيرة في حياة الانسان الذي أعتمد في غذائه وعيشه على مصادر الطبيعية التي زودته بها . وتعد هذه المرحلة ركيزة هامة وأساسية لجانب الافكار والمعتقدات الدينية التي تولدت وانبثقت فيه بشكل ايحائي وبدائي في مضمونها وارتباطها بالطبيعة التي شكلت محور عيش وتكاثر وبقاء الانسان وتوجهه لاداء لنوع من التقديس والتمجيد لهذه البيئة والذي شكل الجانب الثاني للبحث والذي تركز على هذا المحور المتعلق بالطبيعية والأرض واهميتها لدى الانسان خلال فترة العصر الحجري الحديث في حدود الالف السابع قبل الميلاد واهتداته للزراعة التي شكلت الانطلاقة الأولى والحقيقة لنشوء وانبثاق الافكار والتطورات التي تولدت منها المعتقدات الدينية خلال فترة عصور ما قبل التاريخ في العراق والشرق الأدنى القديم وتجميده لتلك الطبيعة والأرض بصور ظاهرية فيها معالم التشبيه والايحاء الذي يمثل جوهر الفكر العقائدي الديني الأول المتمثل بتقديس الخصوبة والانتاج الذي أرتبطت به حياة الانسان ومصيره وحرص الأنسان الدوؤب في استمراره وبقاء ديمومته من خلال تقديسه وعبادته كجزء ضروري وحيوي من حياته ومجتمعه والذي تطور في العصور اللاحقة لفترة ما قبل التاريخ الى ممارسات وطقوس الدفن واشكال ووضعيات القبور والاشخاص المدفونين وهيئات دفنهم والتي عكست ترسيخ الافكار والمعتقدات الدينية وتطورها ووصولها مديات بعيدة ومتواصلة خلال فترة العصور التاريخية وقد شكل ذلك الموضوع الجانب الثالث للبحث الذي حاول أستعراض تلك الجوانب وربطها وتدعيمها بالأدلة والحقائق العلمية وسير عرضها بشكل زمني متدرج وايضاح الصورة الحقيقة والكاملة للفكر الديني في العراق خلال فترة عصور ما قبل التاريخ.

نشوء وتطور الفكر الديني في العراق خلال عصور ما قبل التاريخ:

يوصف الدين غالباً على أنه المحرك الرئيسي والأساسي في نهوض وقيام المجتمعات المتحضرة[١] وكان للمعتقدات الدينية اهمية قصوى في حياة الشعوب القديمة ، بل كانت من اهم العوامل المؤثرة في سير حياتها وتطور حضارتها .فالمعتقدات الدينية تحدد سلوك الانسان وتطبع عاداته وتقاليده بطابع خاص وتنظم اعرافه وتقاليده وتضبط تصرفاته مع الاخرين[٢]، والعقيدة الدينية قديمة قدم وجود الانسان على سطح الأرض ولكنها صعبة التحديد بدقة من حيث الزمان والمكان لان هذه الدقة لم تعرف بعد عن الانسان نفسه ومع ذلك يمكن القول انها وجدت في مناطق عديدة من العالم بين أقدم الجماعات البشرية التي عثر المنقبون الاثريون في مواقع استيطانهم على مختلفات لها علاقة بالدين ويستنتج من دراسة تلك المخلفات الآثرية ان عناصر العقيدة الدينية عند تلك الجماعات تشير الى التشابه والاختلاف وان حالات التشابه بينها اكثر من حالات الاختلاف ومنشأ هذا التشابه قد يعزى الى عامل الانتشار وعامل الاصالة المستقلة الناتجة عن العيش في ظروف متماثلة[٣]، ويقصد بالظروف المتماثلة في المراحل الأولى من نشوء العقيدة الدينية الاحوال الطبيعية والاجتماعية التي عاش فيها انسان العصر الحجري القديم مضافة اليها مقدرته العقلية المحدودة في مواجهة صعوبات الحياة التي كانت تعتمد على الصيد و جمع المواد الغذائية دون مساهمة الانسان في أنتاجها[٤]. وتعد الناحية والسلوك الديني من مجالات الحياة التي تؤلف السياق الوظيفي الفعال للثقافة المادية ، اذ يعد الدين الاستجابة البشرية الايجابية للقوى الطبيعية التي أطلق عليها بعض المختصين مصطلح (الخارق للطبيعية) في العصور الحجرية القديمة وهو مصطلح أستخدمه مؤرخو الدين في وصف تجربة الانسان في مواجهة القوى المروعة الموحية بالرهبة الساحرة التي لا تقاوم وفوق البشر بالظواهر الطبيعية للعالم المادي في محاولة للمسك بصفات القوى وترجمتها الى شيء يمكن أن يتمسك به البشر[٥]، ومن هذا المنطلق تحددت علاقة الانسان بالقوى الطبيعية وأخذت منحيين ، منحى الخوف من تلك القوى وما قد تسببه من أثر بالغ على حياة الانسان الذي حاول حسب ما أعتقده من تلافي خطرها بعبادته وتقديسه لمظاهرها ومنحى الاستفادة مما قد تدره عليه من خير ونفع وبشكل أساس توفير الغذاء الذي هو أساس بقائه ونموه وتكاثره[٦] . وفي العودة الى نشأة الدين يلاحظ من الدراسات المتخصصة بالعصور الحجرية القديمة تأكيد العلماء ما خلفه الانسان القديم منذ حوالي (٨٠) الف سنة ولأول مرة في التاريخ من اعمال فنية تمثلت في النحت البارز على الحجر والعظام وفي رسومه الملونة وقد تبين من هذه النتاجات بأن مواضيعه الفنية كانت تخص عالم الحيوان ومهنة الصيد ولذا فقد أعتقد العلماء بأن أنسان هذه الفترة كان يعبد الحيوان وان رسومه

له كان يستغلها لأغراض سحرية بغية السيطرة بواسطتها عليه لان الحيوان كان يمثل مصدراً غذائياً مهماً لايقل اهمية من النباتات بالنسبة لانسان تلك الفترة [٧]، فخلال زهاء مليونين من السنوات عاش اسلاف أناس العصور الحجرية على الصيد إذ ان الثمار والجذور والرخويات التي كانت تجنيها النساء والأولاد كانت غير كافية لضمان بقاء النوع[٨]، ومن هذا المنطلق والاتجاه تولدت تلك الافكار والايحاءات التي يعتبرها البعض من الباحثين نوعاً من الافكار العقائدية التي تولدت عند الانسان البدائي القديم . والتي تمخضت عنها أمور أخرى أنبثقت وترسخت على غرارها حيث تشير بعض المصادر المختصة في هذا السياق الا أن أنسان النياندرتال كان اول من دفن موتاه فيما قبل التاريخ وأول أنسان أمتاز بالشعور الروحي والديني وربما الاعتقاد بالحياة الثانية بعد الموت[٩] وهناك أدلة متوفرة على ذلك . ففي الشرق الأدنى هناك اشارة من كهف شانيدار *، فقد وجد الباحث (سوليكي) جثة رجل مدفونة في الطبقة (D) وملحقة ببساط من أزهار وضعت الجثة وفوقها وبعد التحليل وجدت بقايا أثار الاغصان ايضاً التي كانت الجثة موضوعة عليها ويشير وجود هذه الازهار الى ان الشخص مات في الربيع وذلك قبل حوالي (٦٠٠٠٠) سنة وقد قام رفاقه بحفر قبره وبوضع حزم من الأزهار تحت جثته وفوقها وهذا ما تؤيده الادلة الاثرية حيث وجدت مجاميع من غبار طلع الزهور بشكل اكوام فوق وتحت الهيكل وتشير هذه بأن انسان النياندرتال كانت له معتقدات بدائية[١٠]. كما وردت اشارات الى وجود بعض الممارسات الطقوسية عند الانسان النياندرتال تشير الى نوع من الافكار الدينية البدائية القديمة في تلك المرحلة التي عاشها ذلك الانسان حيث عثر المنقبون في احدى الكهوف السويسرية على جماجم دببة أقامها نياندرتاليون على مصطبة حجرية لغرض عبادتها وقد قاد ذلك بعض المختصين الى الاعتقاد بأن هذا الموقع الأثري كان أول معبد بدائي أقامه أنسان ما قبل التاريخ[١١].

ان الافكار العقائدية التي تولدت عند الانسان خلال مرحلة العصر الحجري المتوسط وما بعده لم تتوقف عند هذا الحد بل تطورت واتسعت في مضامينها واشكالها وارتبطت مع الظروف المحيطة به وبشكل خاص الظروف البيئة والمناخية التي واجهته والتي القت بضلالها على مجمل حياته كافة والتي شكلت عاملاً أساسياً ورئيسياً لحدوث ما اصطلح على تسميته بالثورة الزراعية أو الانقلاب الأقتصادي الذي شكل مرحلة العصر الحجري الحديث واتجاه الانسان نحو الزراعة لتلبيه متطلبات غذائه ومعيشته التي حتمتها عليه الظروف البيئية والمناخية الجديدة فكان من نتائج العملية الزراعية ودأب الانسان على ممارستها باعتبارها الاساس لمعيشته وبقائه ووجوده أن تجسدت عنده بعض المعتقدات والافكار ذات الطابع الديني التي تدور حول تقديس الخصوبة والانتاج وكان أن ظهرت لديه فكرة أو عقيدة عبادة ما يسمى بالالهة الام Mother)

(Goddessإذ قام الانسان بصنع دمى طينية رمز لها بهيئة امرأة مبالغ في أنوثتها ربما كانت تمثل عند ذلك الانسان الارض وخصوبتها آنذاك فقد عثر على تلك الدمى في الكثير من قرى العصر الحجري المعدني ايضاً مما يشير الى شيوع عبادتها وتقديسها [١٢] .

حيث يعتقد العديد من الباحثين باحتمالية ظهور أول ديانه أو معتقد واضح للانسان في هذه من العصر الحجري الحديث وما بعده وكما أشرنا سابقا " فأن أول معبود تصورته المجتمعات مماله علاقة بزراعة الانسان التي تعلمها في تلك الفترة كان على هيئة الهة أو معبودات عامة تمثل الأرض والخصب والقوى المولدة في الطبيعية ثم أخذ البشر يرون في قوى الطبيعية الأخرى كوائن علوية جسموها بهيئة الهة وقد كان هذا هو الحال في الديانة في حضارة وادي الرافدين حيث انتخب القوم اهم الظواهر الطبيعية التي كان لها اثر قوي في كونهم وحياتهم وجسموها من بعدئذ أي شخصوها على هيئة الهة[١٣]، وقد مثلت تلك المرحلة البدايات الحقيقية لنشوء الفكر الديني عد الانسان ، اذان الرغبة الكبيرة عند الانسان في تلك المرحلة في تأمين استمرارية وجوده في الحياة وكذلك استمرارية حصوله على القوت الحيواني والنباتي فانه في معظم الازمان والاماكن قد ركز على عامل رئيسي معين الا وهو تقديس اماكن معينة اعتقد بأنها مصدر جلب خير له وقد أصبح ذلك واضحاً منذ العصر الحجري وبصورة خاصة منذ ظهور الحضارة (الاوركنيشية)* والتي ركز فيها الانسان على دمى النساء الحوامل والتي كانت تقدس وتعبد من قبل اهالي المناطق الزراعية الأولى في أوربا والشرق الأدنى والتي اصطلح على تسميتها بدمى (الالهة اللأم) والتي عثر عليها في مواقع تلك المناطق [١٤]. كما فسرت الدمى الأخرى والنقوش التي كانت على هيئة رأس أوظلف ثور أوعلى هيئة تشبه عضو الذكر على أنها رمز للعنصر المذكر في الطبيعية وانها تظير الالهة الام [١٥]، اما قبل تلك الفترة فقد كانت الأفكار العقائدية أو الدينية ذات دلالات رمزية وتصويرية وسحرية نوعاً ما [١٦]، فالاسلحة والآلات ومواد الزينة وبقايا الطعام التي وجدت في مدافن الكهوف مع الهياكل العظمية البشرية تشير الى اعتقاد الانسان البدائي في تلك الفترة بوجود الروح التي تبقى بعد فناء الجسم وربما تشير الى الموؤنة والسلاح ، كما ان الرسوم الجدارية والمنحوتات البارزة التي زينب بها جدران الكهوف بعناية فائقة وبمهارة فنية عالية لايمكن تغيرها بمجرد الرغبة في التعبيرعن الهواية الفنية بل بارتباطها بالعقيدة الدينية ايضاً[١٧]، ويعد العديد من الباحثين والمختصين ان تلك المخلفات والاثار التي تركها الانسان في الكهوف والتي تشير حسب اعتقادهم الى نوع من الطقوس والشعائر الدينية بداية ظهور المبادئ الأولى للدين [١٨]، لقد تمثلت بدايات الفكر الديني وجانب المعتقدات الدينية في العراق بافكار بسيطة وبدائية خلال مرحلة العصر الحجري القديم الاعلى

والمتوسط خلال الفترة ما قبل الالف العاشر واشارات الأفكار قد تكون رمزية أو تعبيرية والطقوس الدينية غير واضحة المعالم لخلو مواقع تلك الفترة المتمثلة بمواقع السكنى المكشوفة من الادلة المادية التي تشير الى ذلك كالمقابر وما تحوية من جهاز جنائزي أو وضعيات و طرق دفن للموتى وخلوا المواقع من القبور حدت ببعض الباحثين والمختصين الى تفسير الدفن بوقوعه في مناطق خارج المواقع السكنية أو ربما أن طقوساً خاصة كانت تجرى على الموتى في حالة وفاتهم كالحزن مثلاً والذي لا يترك أثراً أو أية مخلفات مادية بالرغم من عدم العثور على اشارات داخل الموقع توضح وجود هذه الطقوس أو ممارستها[١٩]، كذلك ان نسبة او كمية ما تم العثور عنه من قطع طينية تمثل نوع من الدمى والتماثيل أو ما يشابهها ضئيلة ولا تعرف ماهيتها او وظيفتها ولا تطابق في كثير من الاحيان مع الصفات المعبرة عن الخصوبة والتي تمتاز بها دمى وتماثيل العصر الحجري الحديث وما بعده وكذلك ايضاً من حيث طريقة الصنع كما في موقع كريم شاهر * الذي عثر فيه على شكلين من الدمى الطينية القليلة الشوى وموقع ملفعات * الذي عثر فيه على كسر طينية شبه محروقة يعتقد انها تمثل دمى[٢٠].

لقد دخل الفكر الديني في العراق والعالم القديم منعطفاً جديداً وبارزاً ومتطوراً خلال مرحلة العصر الحجري الحديث الذي مثل بداية مرحلة جديدة وهامة في تاريخ الانسان خلال مرحلة عصور ما قبل التاريخ من خلال الانجازات الكثيرة التي حققها الانسان في ذلك العصر والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية التي حصلت للأفراد والمجتمعات من خلال تلك الانجازات المتحققة والتي كانت دراماتيكية في نتائجها كما وصفها وعدها البعض من الباحثين[٢١]، فكان هذا العصر عصر ((الثورة الانتاجية الأولى)) في تاريخ البشرية والمرحلة الاقتصادية الهامة التي تبين نهاية حياة الصيد وبداية اقتصاد المدن[٢٢].

لقد كان الفكر العقائدي الديني ونشوء اولى مظاهر التقديس والعبادة أحد أهم مظاهر وجوانب العصر الحجري الحديث في العراق والعالم القديم واحد نتائج العلمية الزراعية التي أنبثقت ونشأت بصورها واشكالها المعروفة. حيث أرتبط ذلك الفكر بالعملية الزراعية الذي وصل كما وصفه احد الباحثين المختصين الى حد ((التضامن)) وارتبط بالمرأة كمضمون روحي وتعبيري ورمزي اذ ان خصوبة الارض هي ايضاً متضامنة بالخصوبة النسوية، حيث أن اكتشاف الزراعة قد انمى قوة القداسة النسوية والامومة بشكل محسوس[٢٣]، وتولدت عند سكان قرى هذه المرحلة الزراعية عقيدة دينية وكان أول معبود تصوروه وعبدوه كان ذا صلة بقوى الأرض المنتجة أو على هيئة الهة تمثل الأرض وخصبها وقد أطلق عليها اسم ((الهة الأم)) التي تمثلها دمى الطين المصنوعة بهيئة نسوه بدينات ، وقد وجد الكثير منها في قرى هذه المرحلة[٢٤]، اذ ان الحضارات التي سادت في الاقسام الشمالية من العراق خلال فترة العصر الحجري الحديث حوالي

(١٠٠٠٠-٥٠٠٠ م. م) كانت حضارات زراعية تعتمد في انتاجها بصورة رئيسة على المطر وكل ما كانت تحتاجه من اجل غزارة الانتاج هو الخصوبة ولهذا السبب عبد سكان هذه الحضارات فكرة الخصوبة وكل ما يولد حياة جديدة ورمزوا لعبادتهم هذه بالالهة المصورة للام بأعتبار ان الام ظاهرياً هي العنصر الوحيد المنتج للحياة بين الجنس البشري[٢٥]، وتمثل بوجه عام القوة والخصب والدور الاقتصادي المتمثل بالدور المهم الذي لعبته المرأة في الحياة الاقتصادية خلال مرحلتي جمع وانتاج القوت ومشاركتها للرجل في تلك الحياة خلال هاتين المرحلتين الهامتين من تاريخ البشرية[٢٦] ويشير بعض الباحثين المختصين الا انه ابتداءً من اواخر الالف العاشر وبداية الالف التاسع قبل الميلاد ظهر التقدم والتطور على دمى هذه الفترة اكثر من غيرها وذلك في أقاليم جنوب غرب اسيا خصوصاً في العراق وبلاد الشام اذ عثر في موقع (ملفعات) ، الطبقة ١-٥ على كسر طينية ربما مثلت دمى حيوانية و ووجدت دميتان طينيتان تمثلان حيوانين صنعا بالاسلوب الطبيعي في موقع كريم شاهر في الطبقة(١)[٢٧] الا ان الغاية من صنع تلك الدمى لم تكن واضحة وذات مفهوم كما اشرنا سابقاً . ويعد وجود هذه الدمى التي تعود بتاريخها الى حوالي الالف السادس ق.م ابرز الشواهد على الفكر الديني في العراق خلال تلك المرحلة . حيث تم العثور في القرى الزراعية الأولى على مجموعة منها وباشكال لها علاقة بالنسل والاخصاب ، وعملت هذه الدمى باوضاع مختلفة ، قسم منها نساء حبالى مع تضخيم أعضاء الجسم كالصدر والعجر والقسم الأخر في حالة الولادة أو ارضاع الوليد وقد سميت كما اشرنا سابقاً ((بالالهة الام)) [٢٨] .وقد وجدت نماذج هذه الدمى في العديد من المواقع والقرى الزراعية ومن ابرزها قرية جرمو التي وجد فيها مايقرب من (٥٠٠٠) دمية بنوعيها البشرية والحيوانية و غالبيها مشوية شياً خفيفاً ومعمولة بصورة غير جيدة وقسم منها مطلي بلون احمر وتتسم بالبدانة وتمثيلها لنسوة في حالة حمل[٢٩] . كما تم وجدت نماذج من تلك الدمى في قرية حسونة التي وجد فيها تماثيل أنثوية بسيطة مصنوعة من الطين اذتم العثور في الطبقة(٧) من القرية على تمثال مصنوع من الطين لأنثى أوامرأة بهيئة الجلوس[٣٠] . كما تم العثور على نماذج هذه الدمى في مواقع وقرى الصوان قرب سامراء والاربجية وتبه كورا قرب الموصل واور -العبيد الطبقات (I) و (II) وفي الحواضر العراقية القديمة مثل أور و بابل واشور ومنطقة ديالى وغيرها[٣١] . وجميعها تدل على الأهمية البارزة التي حظيت بها عبادة الالهة الام والتي كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيئة التي عاشها الانسان في تلك الفترة لأنها تمثل الارض والخصب والظواهر الطبيعية ذات العلاقة بالزراعة وقد بقيت عبادة الالهة الأم وما رافقها من معتقدات مستمرة عبر جميع الفترات الزمنية لتاريخ العراق القديم وفي معظم المستوطنات

والقرى الزراعية والمدن المختلفة من شمال العراق الى جنوبه . وقد حدث تغير بسيط في شكلها في الفترات المتأخرة حيث أخذ الشكل يميل الى النحافة والرشاقة بعد أن كانت الالهة الأم تظهر بجسم ممتلئ(٣٢).

ان تقديس الامومة وعبادة الثور الذي شاعت عبادتة بشكل خاص في عصر حلف خلال العصر الحجري المعدني من البوادر الفكرية العامة للمجتمع الزراعي وقد لازمت هذه العبادة بلدان الشرق الأدنى عصور طويلة من التاريخ لم تقتصر على العراق . اذ وجدت اعداد غير قليلة من هذه التماثيل الانثوية بالاضافة الى المواقع والقرى الزراعية في العراق في بلاد الاناضول واعالي الفرات في (جغار بازار) في بلاد الشام ومنها انتشرت الى اليونان في العصور الاحقة(٣٣)، وهذا يشير حسب اعتقادنا الى قوة وترسيخ ذلك الفكر المتجسد بهذه العبادة وشيوع عبادتها اضافة الى قيام صلات بشرية وحضارية بين العراق وتلك المناطق وما بينها بشكل واسع وكبير التي تشكل وحدة جغرافية واجتماعية واقتصادية بالإضافة الى الوحدة الحضارية منذ أقدم العصور(٣٤)، لقد تطور الفكر الديني في العراق واتسعت مفاهيمه وافكاره وجوانبه خلال المراحل اللاحقة للعصر الحجري الحديث وشهد انتشاراً واسعاً وكبيراً في القرى والمناطق العراقية القديمة بل وامتد تاثيره الى خارج تلك القرى والمواقع الى القرى والمناطق المجاورة للعراق وأسس لقواعد واركان ومبادئ عقائدية جديدة ترسخت واتسعت وتطورت خلال العصور التاريخية ومن تلك الافكار التي ترتبط بذلك الفكر الديني هو الاعتقاد حسب رأي بعض الباحثين المختصين بفكرة حياة مابعد الموت حيث امكن التعرف على معتقدات سكان بعض المناطق من قبورهم من ذلك معتقدات سكان العبيد ، حيث تشير التجهيزات التي كانت توضع مع الموتى الى نوع من الاعتقاد بما بعد الموت(٣٥)، وقد فسر وجود تلك التجهيزات لاعتقاد سكان العراق القدماء بوجود عالم ما بعد الموت وان تلك التجهيزات ستكون ذوفائدة لارواح اولئك الموتى في ذلك على حسب رأي البعض من الباحثين المختصين(٣٦)، ومن الامور الأخرى التي أرتبطت بالفكر الديني وتطوره طرق الدفن والجهاز الجنائزي الخاص بها. حيث سادت طرق واوضاع عديدة فيها وقد رمزت تلك الطرق والاوضاع الى دلالات ومغازي عقائدية وروحية معينة من ذلك مثلاً العثور على اطفال رضع مدفونين داخل جرار في الطبقة (I) من موقع قرية حسونة والعثور على قبر داخل بيت يعتقد انه سكني في اسفل الطبقة (I) من موقع القرية نفسه ، كذلك العثور في ذات الموقع على هيكل عظمي يمثل جسم المتوفى بهيئة مقلصة أو كما يصطلح تسميته بوضعية (القرفضاء) وعلى هيكلان عظيمان لشخصين بالغين كانا موضوعين بشكل جانبي بالقرب من صندوق استخدم لخزن الحنطة في الطبقة (III) من الموقع كذلك العثور على جمجمة موضوعة في حفرة دفن ومجموعتين من العظام المختلفة تم العثور عليها في احدى زوايا غرف منفرد(٣٧)، كذلك ما

ثم العثور عليه من مدافن في تل العبيد * خلال فترة العصر الحجري المعدني والتي تشير الى تطور كبير وواسع في الفكر الديني خلال تلك المرحلة التي شهدت تطوراً سريعاً وكبيراً عما هو عليه في الفترات المتأخرة من عصر العبيد اذ تم العثور فيها على اكثر من (١٠٠٠) قبر ضمت أشخاص مدفونين وموضوعين بهيئة ووضعية التمدد ، كما تم العثور في ذات المنطقة على قبور صغيرة يعتقد انها خاصة لاشخاص معينين وجد فيها فخار صغير وعدد من الاواني الفخارية المصبوغة واشياء اخرى دفنت مع الشخص المتوفى[٣٨]، ويشير كل ما تم عرضه من أفكار ودلالات ترتبط بالفكر الديني وخصوصية كل منطقة وفكرها الخاص المرتبطة به مما يعكس التنوع والتعدد والتباين الفكري الديني الذي يصب في النهاية الى بلورة وصياغة الفكر الديني العام وتطوره خلال مرحلة عصور ما قبل التاريخ في العراق.

الخاتمة:

يعد الفكر الديني احداهم الجوانب المحورية في حياة الشعوب القديمة التي ترسم الخطوط العريضة والتوجهات الاساسية لأفكار وممارسات وسلوكية الانسان والمجتمع قاطبة في قيمه وعاداته واعرافه وتقاليده وقوانينه . وقد شكل الفكر الديني منعطفاً هاماً في تاريخ وحضارة الانسان خلال فترة عصور ما قبل التاريخ والذي كان وليد التأثيرات والمتغيرات البيئية والمناخية والاقتصادية والاجتماعية التي أنبثق منها والتي حمل معها أفكاراً ومعتقدات عززت واضافت عناصر جديدة تمخضت بمرور الزمن الى تكوين وارساء ديانات لها قواعد ومبادئ وأُسس محددة حملت فكراً دينياً ذات منبع ورؤية محددة رسمت شكل المعتقدات الدينية التي سارت عليها المجتمعات القديمة خلال سير تاريخها وحضاراتها لسنين طويلة . لقد عد الفكر الديني أحد اهم جوانب الحضارة العراقية القديمة الذي نشأ وتطور خلال فترة عصور ما قبل التاريخ عكس الإفاق العميقة للإنسان العراقي القديم ونظراته التي بدأت من الفطرة في التعبير الرمزي والتصوري للمحيط الذي يعيش فيه و الطبيعة التي شكلت عالمه الذي يستمد منها مقومات حياته ووجوده وانتهت بالإيمان والتقديس الواقعي لقوى ذلك المحيط والطبيعة التي أدرك من خلالها حقيقة وجوده واستمرارية بقائه وديمومة حياته.

شكلت عبادة وتقديس ((الالهة الام)) الممثلة بالدمى الطينية التي جسدت الأرض بهيئة امرأة بهيئة الحمل النواة الأولى لذلك الفكر الديني بصورته الحقيقية الذي كان وليدة هذه العبادة التي جاءت نتيجة الظروف والتغيرات الجديدة التي مرت على الانسان خلال مرحلة العصر الحجري الحديث الذي شكل الانطلاقة الحقيقية والجوهرية لمرحلة جديدة حملت تطورات وانجازات كثيرة كان نشوء وتطور الفكر الديني ابرزها واهمها . وقد عكس انتشار وتطور الفكر الديني المتمثل بهذه العبادة عمق ايمان الانسان العراقي القديم ونظرته الواسعة لحقيقة أسباب وجوده وديومة استمرار حياته المتمثل بالارض والزراعة التي شكلت أُسس ذلك الفكر الذي تطور واتسعت مجالات انتشاره ومناطقة خلال الفترات اللاحقة للعصر الحجري الحديث ومعها تطور واتساع افاق وتصورات الانسان العراقي الذي ازداد ايمانه وعقائده الفكرية التي تعمقت بعناصر وافكار وتصورات جديدة مثلتها الشواهد الاثارية التي عثر عليها المنقبون الاثاريون والتي عكست ومثلت تلك العناصر والافكار كالمدافن وطرق الدفن والمستحضرات الجنائزية وغيرها مماله صلة بها لتتحول وتتطور بعدئذ وتشكل الملامح العامة والقاعدة الرئيسية للديانة العراقية القديمة بسماتها وخصائصها العامة خلال العصور التاريخية القديمة للعراق وحضارته العريقة وتستمر على مدار الاجيال المتعاقبة عبر مسيرتها الانسانية.

هوامش البحث:

ملاحظة: سأذكر هنا معلومات كاملة عن المصادر والمراجع عند ذكرها لأول مرة مما يغنينا عن اعداد جريدة للمصادر والمراجع.

---

(1) Oates ,J., Religion and ritual in sixth – millennium B. C . Mesopotamia" , in : Jstor: world Archaeology , Vol.10, No .2 ,1978 , P.117 .

(٢) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ القديم – موجز التاريخ الحضاري ، موصل ، ١٩٩٣ ، ص١٠٩.

(٣) الدباغ ، تقي، "الهة فوق الارض دراسة مقارنة بين المعتقدات الدينية القديمة في الشرق الأدنى واليونان" ، مجلة سومر ، مج ١٩، ص١٠١.

(٤) الدباغ المصدر نفسه ، ص١٠١.

(٥) بوتس ، دانيال تي ، حضارة وادي الرافدين الأُسس المادية ، ترجمة : كاظم سعدالدين، بغداد، ٢٠٠٦، ص٢٧٤.

وينظر: النجم ، حسين يوسف حازم، "تقديس الخصوبة عند سكان عصور ما قبل التاريخ في العراق"، مجلة اداب الرافدين، العدد، ٢٠١١، ص٥٩.

(٦) النجم ، المصدر نفسه.

(٧) رشيد ، فوزي، "نشأة الدين والحضارة والعصور الجليدية"، مجلة سومر ، العدد ١٩، ص١٩.

(٨) الياد ، ميرسيا ، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية ، ترجمة : عبدالهادي عباس ، دمشق، ٢٠٠٦، ص١٧.

(٩) جواد ، عبد الجليل، "النياندرتاليون وتراثهم الثقافي"، مجلة سومر ، مج ٢٧، ١٩٧١، ص ٣١.

(١٠) ياسين ، غسان طه ، العصر الحجري القديم الأوسط في الشرق الأدنى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد، ١٩٧٦، ص١٩٢.

*كهف شانيدار : يقع هذا الكهف في القسم الجنوبي من جبال برادوست ويطل على الزاب الاعلى ، ويبلغ طول الكهف حوالي (٤٠) م وارتفاعه نحو (٨) م وعرض فتحته (٢٥) م وهو من اكبر الكهوف المكتشفة لحد الان ، وقد جرت تنقيبات فيه من قبل بعثة جامعة مشيكان والمعهد الشمشوني عام (١٩٥١) واستمرت لغاية عام (١٩٦١) وقد تم تحديد اربع طبقات أثرية في الكهف . ينظر:

Solecki , R., " shanidar Cave A palaeolithic Site In Northern Iraq And it's Relationship to the stone Age sequence of Iraq , In :Summer , Vol . 11 . 1955 , P.22.

(١١) جواد ، المصدر السابق ، ص٣١.

(12) Cauvin , J . , The Birth of the Gods and the Origin of Agricul true , translates By: trevor watKins , Cambridge , 2003 , P.29 .

وينظر ايضاً : كسار ، اكرم محمد عبد ، قراءة في نتاجات الانسان الفنية الاولى ، مجلة سومر مج ٣٩، ١٩٨٣، ص٣٥.

النجم، حسين يوسف حازم، اقتصاد القرى الزراعية خلال العصريين الحجريين الحديث والمعدني في العراق، اطروحة دكتوراه غير منشورة، موصل، ٢٠٠٦، ص٢٩.

(١٣) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١، بغداد، ١٩٥٥، ص٢٢٤.

* الحضارة الاوركنيشية : وهي الحضارة التي تمثل الجزء الأول من سلسة العصر الحجري القديم الاعلى من فرنسا . وتتميز هذه الحضارة بالمثاقب العظمية ذات الشقوق ((الجؤجيئات)) وهي ادوات حجرية مصقولة ويمتد تاريخ هذه الحضارة استناداً الى فحص الماريون بين (٣٣,٠٠٠-٣٦,٠٠٠) مد. م ينظر: دانيال ، كلين ، موسوعة علم الاثار ، ترجمة : ليون يوسف ، بغداد، ١٩٩٠، ص٨٩.

(١٤) الرويشدي، سعدي، "نظرة في منجزات انسان ما قبل التاريخ في ضوء الدراسات الحديثة"، مجلة سومر، مج٢٦، ١٩٧٠، ص٣٨٢.

(١٥) سليمان ، المصدر السابق، ص١١٤.

(١٦) غوران – اندريه لوراو ، ادُيان ماقبل التاريخ و ترجمة ك سعاد حرب ، بيروت، ١٩٩٠، ص١٤٥.

(١٧) الدباغ، المصدر السابق، ص١٢١.

(١٨) اسماعيل، بهيجة خليل، "مظاهر التوحد في المعتقدات الدينية"، وقائع ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين، ٢٠٠١، ص١٣٢.

(١٩) الشيخ ، عادل عبدالله ، بدء الزراعة واولى القرى في العراق، رسالة ماجستير غير منشورة، بغداد، ١٩٨٥، ص٥٠.

*كريم شاهر : * موقع مكشوف يقع في منطقة المرتفعات التلية في شمال شرق العراق على بعد حوالي (٦) كم شرق جمجمال ويبلغ ارتفاعه حوالي (٨٣٥) وقد جرت تنقيبات اثارية فيه من قبل (بروس هاو). ينظر:

Braid wood , R. – How , B. , Prehistoric Investigations In Iraqi Kurdistan , Chicago , 1960 . , P. 257 .

*ملفعات : يقع هذا الموقع على ضفة نهر الخازر على الطريق الرابط بين أربيل والموصل وهو موقع مكشوف في العراق على ارتفاع (٣٠٠) م فوق مستوى السهل ويقدر تاريخه بحوالي (٩٠٠٠± ١١,٠٠٠) سنة قبل الميلاد . وقد جرت تنقيبات اثارية فيه من قبل (بريدوود). ينظر:

Braid Wood – Howe , PP . 50 -52 .

(20) Mella art , J . , " The Earliest Settlments in Western Asia from the Ninth to the End of the fifth Millennium Bc : In : Cambridge Ancient history , Vol . 1 Part 1 , 1970 , P. 257 .

وينظر ايضاً: الجاسم ، صباح عبود ، مرحلة الانتقال من جمع القوت الى انتاج القوت في العراق وجنوب غربي أسيا ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٧٥، ص٦٣.

النجم ، تقديس الخصوبة ، المصدر السابق.

(21) Chard, C.S. Man in pre History , United States, 1969, P. 206 .

(٢٢) السيد غلاب ، محمد – الجوهري ، يسري ، الجغرافيا التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجرة ، القاهرة، ١٩٨٦، ص٥٩.

(٢٣) الياد ، المصدر السابق ، ص ٥٩.

(٢٤) الدباغ ، لقي – الروشيدي ، سعدي فيضي ، علم الانسان بغداد، ١٩٨٤، ص٢١٥.

(٢٥) رشيد ، فوزي، "وئد البنات ونظام تعدد الأزواج في عصور ماقبل التاريخ"، مجلة سومر ،مج ٣٦، ١٩٨٠، ص٥٣.

(26) Ristvet , L . , in the Beginning , Georgia state university P.20 .

(٢٧) محمد ، أحمد كامل ، "رموز الخصب خلال العصر الحجري الوسيط" ، مجلة سومر، المجلد (٥٤)، ٢٠٠٩، ص٢٩٣-٢٩٤.

(٢٨) خليل ، المصدر السابق ، ص١٣٢.

*جرمو : أحدى اهم القرى الزراعية في العصر الحجري الحديث في العراق . تقع الى الشرق من مدينة كركوك بحوالي (٣٥) كم وعلى بعد نحو (١١) كم من بلدة جمجمال على ارتفاع يبلغ حوالي (٧٥٠) م فوق مستوى سطح البحر ، وتشغل مساحة من الارض تبلغ ابعادها حوالي (٩٠×١٤٠) م وقد احتوت على (١٦) طبقة اثرية ، وقد جرت تنقيبات اثارية فيها من قبل (بريدوود) ينظر :

Braid wood – Howe , Op. Cit , P.26.

(٢٩) بارو ، اندرية ، سومر فنونها وحضارتها ، ترجمة : عيسى سلمان سليم طه التكريتي بغداد، ١٩٧٧، ص٨٧.

وينظر ايضاً : كسار ، المصدر السابق ، ص٣٥.

* جسونة : تقع على بعد (٨) كم شمال شرق ناحية الشورة و (٣٥) كم جنوب مدينة الموصل، وتمثل القرية موقعاً مستطيل شكل ابعاده (١٥٠×٢٠٠)م وارتفاعه (٧) م احتوى على خمس عشرة طبقة اثرية . وقد اكتشفته المديرية العامة للاثار عام (١٩٤٢) واوكلت عملية تنقيبة للمنقب(سيتون لويد) عام (١٩٤٣) ينظر:

Loyed , s . Safar , F. , Tell Hassuna : Excavations by the Iraqi Government Directorate of antiquities in 1943 and 1944 " In : JNES (Journal of Near Eastern studies , Chicago). Vol . 4 .1945 , P. 259 , 257 – 260.

وينظر ايضاً : الشيخ ، المصدر السابق، ص٧٤.

صالح ، قحطان رشيد ، الكشاف الاثري في العراق، بغداد ١٩٨٧، ص٧٦.

(30) Perkins, A. L., The comparative Archeology of Early Mesopotaia, Chicago, 1957, P. 5.

وينظر ايضاً :خليل ، المصدر السابق ، ص ١٣٢.

(٣٢) خليل ، المصدر نفسه، ص١٣٢-١٣٣.

(٣٣) الدليمي ، محمد صبحي عبدالله محمد ، العراق وبلاد الشام صلاتها الحضارية والسياسية منذ عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية العصر البابلي القديم ١٥٩٥ ق.م . رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد (١٩٩٠)، ص١٦١.

(٣٤) حول تلك الصلات والروابط الحضارية . ينظر : الدليمي ، المصدر السابق، ص١٦١.

(٣٥) ساكز ، هاري ،عظمة بابل ، لندن ، ١٩٦٦، ترجمة: عامر سليمان ، موصل، ١٩٧٩ ، ص٤٠.

(٣٦) الشيخ ، المصدر السابق، ص١٩٣.

*العبيد : يقع بالقرب من أور وبحوالي أربعة اميال يعود زمنه الى الطور الاخير من العصر الحجري المعدني. وقد كشف عنه البريطانيون في عام ١٩١٩ ومن ١٩٢٢ حتى ١٩٢٤ واطلق الاسم على عصر في التسلسل الزمني لبلاد الرافدين . ينظر : كلين ، المصدر السابق، ص٣٦٨.

وينظر ايضاً : رشيد ،عبدالوهاب حميد ، حضارة وادي الرافدين ميزوبوتاميا ، بغداد، ٢٠٠٤، ص٣٩.

*ابو شهرين (اريدو) : تقع بنحو ٢٤ كم غرب مدينة أور القديمة وهي من اماكن الاستيطان المهمة في السهل الرسوبي تعود بداياتها الى عصر العبيد مروراً بعصر الوركاء وفجر التاريخ. ينظر : رشيد المصدر السابق، ص٤٠ .

(37) Perkins , op. Cit, P. 89 .